مراجعة كتاب: السنة النبوية بين أهل الفقه ... وأهل الحديث

اسم المؤلف: محمد الغزالي

راجعه: سيد عمر شريف

saidomar1963@gmail.com

عنوان الكتاب: السنة النبوية بين أهل الفقه... وأهل الحديث

الناشر: دار الشروق، الطبعة الأولى، عام 1409هـ – 1989م

بيروت- برقيا: دار الشروق

منذ سبعينيات القرن المنصرم، وانصداحها على رقعة العالم الإسلامي، وطرقها أبواب أوروبا والأمريكيتين، نتأ على جسمها شباب أنصاف علم، ولغُوا كثيرا في كتب السنة واغترفوا منها إلى حد الارتواء، بينما لم يفعلوا الشيء نفسه في ما يتعلق بالقرآن الكريم الذي هو الأصل، والسنة شارحة ومبينة له، وهذا انحراف عن طريق جهابذة الفقه وأئمة العلم؛ مما نبا منهم فتوى شاذة تخالف ما عليه جمهور الفقهاء والمفسرين؛ إما لاعتمادهم على أحاديث الأحاد فيما يتعلق بالعقائد التي لا تبنى مسائلها إلا على ما تواتر عليه روايةً وتوافق عليه عقلًا، أو الأحاديث الضعيفة سندا أو متنا فيما يتعلق بالأمور التشريعية، أو اكتفاء بحديث واحد في فتواه دون الرجوع إلى الأدلة الأخرى التي وردت في الموضوع؛ ليرى مدى انسجامه مع ما ورد في القرآن الكريم. مما أحدث بلبلة في أوساط المشغلين في حقل الدعوة، ونتج عنه اعوجاج في الفهم. وعدم إعطاء الأولويات أهميتها اللائقة؛ لانشغال العاملين في حقل الدعوة بمسائل جانبية لا تقدم للدعوة ثمرة، مما أدى إلى انحراف قطار الدعوة عن مساره الصحيح.

في هذه الأجواء الملبدة بالأفكار الغريبة، والتي اختلط فيه الحابل بالنابل، حيث صار ما كان مباحا حراما، ويكفر المرء بفعل شيء لا صلة له بالعقائد، وساد فيه الفقه البدوي الذي يسعى أنصاره إلى جعله جزءا من الدين، في هذا الجو انبرى الشيخ الأديب والعالم الجليل محمد الغزالي ليتصدى لهؤلاء المتطفلين على مائدة السنة؛ ليعيد الماء إلى مجاريها، ويزيح عنها الطحلب الذي غطى نصاعتها؛ ليقول لهم انسحبوا من هذا الميدان، واعطوا القوس باريها، وتصدى لهم ببيان الطريقة المثلى لاستنباط الأحكام، ومنهج الفقهاء في استخراجها من مظانها، وتخريج الفتاوى من منابعها، حيث كانوا يعتمدون على دراسة موضوعية، وليس مجرد نزع حكم من رواية قد لا تكون صحيحة السند أو معلولة المتن،

كما أراد أن يلفت عناية المنشغلين بالدعوة إلى إعطاء الأولوية بقضايا الأمة الكبرى، فمن إجحاف الدعوة اعتراك حملتها في مسائل فرعية، قد لا تجدي للدين نفعا فيما سفينة الأمة تفتقد إلى ربان، وقضايا الأمة الكبرى: العدل والمساواة والحرية، وتكافئ الفرص والديموقراطية كالحة على أرضها، والتخلف العلمي والصناعي تجثم على صدرها هذه القضايا مغيبة في خطابات هؤلاء لا تكاد تجد لها مساحة تذكر، بل ما يولونه اهتمامهم ويؤسسون جمعيات وهيئات لأجله، هو مسائل تتعلق باللحية والنقاب ورفع الإزار إلى نصف الساق والسواك ...الخ .كما حرص على التنويه بأن الداعية، عليه معرفة بيئة المدعو، والعرف السائد في بيئته، فهو ثمة جزء من الإسلام ما لم يخالف نصا صحيحا، كما أن عليه معرفة الثابت والمتغير، فالغايات ثابتة والوسائل متغيرة حسب الأزمنة والأوضاع.

فلندخل الآن في الموضوع بدءًا بالكاتب:

يُعَدُّ الغزالي أحد أهم أعلام الفكر الإسلامي في النصف الثاني من القرن العشرين؛ وقد عُرِفَ عنه تجديدُه في الفكر الإسلامي، ويتميز فكر الغزالي بأنه يعتز بالمصلحين ويُقِرُّ بفضلهم، ويُقَدِّرُ مواقفهم، ويتخير من آرائهم، ولكنه لا يتحيز لفكرهم. تقوم فلسفة الغزالي التربوية على الإيمان بالفروق الفردية، ورعاية المواهب الإنسانية وتشغيل الطاقات المعطلة .كما يُعد الغزالي من أبرز الدعاة المنافحين عن اللغة العربية في هذا العصر، وكان يصرخ بحرقة: "اللغة العربية في خطر، أدركوها قبل فوات الأوان" أثرى الشيخ محمد الغزالي المكتبة الإسلامية بالعديد من الكتب التي لا نظير لها في تنوعها، وسهولتها مع عمقها الفكري، وبلاغتها، وجِدَّة مواضيعها، ونفاذها إلى القلب، كل ذلك في آنٍ واحد. وقد ناهزت مؤلَّفاته أكثر من خمسين عملًا، في محال العقيدة والسياسة والاقتصاد .. الخ، وكان لها تأثير قوي على الأمة الإسلامية كلها. تُوُفِّي الإمام محمد الغزالي يوم السبت (٩١ من شوال ٦١٤١هـ الموافق ٩ من مارس ٦٩٩١م) في السعودية أثناء مشاركته في مهرجان الجنادرية الثقافي بالمملكة العربية السعودية، حول موضوع الإسلام وتحديات العصر، ودُفِنَ بالبقيع، (راجع سيرته الذاتية على موقع الشيخ الغزالي على الشبكة الدولية).

هذا الكتاب يُعَدُّ من أشهر كتب الغزالي، وأكثرها تداولا وقد أحدث ضجة فكرية كبيرة بين الباحثين؛ إذ جمع فيه المؤلفُ الكثير من أفكاره النقدية في موضوع المرأة، ونقده اللاذع لمن كان يسميهم بأنصاف العلماء، الذين يتصدرون الفتوى دون رسوخ أقدامهم في العلم.

يتكون الكتاب من ١٦٠ صفحة من الحجم المتوسط. ولم ينسجه على شكل أبواب وفصول ومباحث؛

لأنها ليست موضوعات تسلسلية، وإنما يجمع نسيجها ميدان الدعوة، وكونها تتناول موضوعات اجتماعية إذا ما استثنينا موضوع (القدر والجبر) و(أحاديث الفتن) (وفقه الكتاب أولا) وقد يبدو للقارئ أنها موضوعات كتبت في مناسبات مختلفة، ثم جاء الكتاب ليحزمها في حزمة واحدة.

يشتمل الكتاب على: تمهيد ومقدمة ويليهما الموضوعات التالية: نماذج للرأي ... والرواية، في عالم النساء، معركة الحجاب، المرأة والأسرة والوظائف، حول شهادة المرأة، الغناء، آداب الملابس، آداب البيوت في البناء والسكنى، المس الشيطاني حقيقته وعلاجه، فقه الكتاب أولا، أحاديث الفتن، وسائل وغايات، القدر والجبر.

وكما ذكرت ليس هناك تسلسل موضوعي للكتاب؛ لأن الكاتب يتناول موضوعات شغلت الساحة الإسلامية من فترة السبعينات إلى يومنا. هذا وما زالت هذه الموضوعات موضع خلاف ونقاش، وإن قلت حدته بعد النقلة النوعية التي أحدثته الحركة الإسلامية، فموضوع النقاب والحجاب في العالم الإسلامي -على الأقل– خفت حدته، وإن كانت معركته ما زلت محتدمة في الغرب بشكل آخر، وهو محاربتهما ومنعهما؛ لأنهما –بزعمهم- مخالفتان لثقافة العري الذي نشأوا عليها.

صاغ المؤلف الكتاب بلغة أدبية راقية، تدل على رسوخ قدمه في الأدب، وتملكه ناصية العربية، ويظهر ذلك جليًا في جزالة القول، وقوة العبارة، وأحيانا وعورة بعض كلماته، حتى أكاد أزعم أن القارئ العادي، قد يحتاج مصاحبة القاموس لفهم بعض الكلمات والعبارات، وأرى أن خلال منازلته لمخالفيه ألقى عليهم حمما من العبارات وألسعهم بأوصاف تمنيت لو أن الكاتب لم يوردها، كوصفهم بالدهماء أو طفيلين، وغيرها من العبارات التي لو خلا منها الكتاب –على الأقل– في رأيي لكان أفضل. ولربما نبا عنه هذه الكلمات بسبب الغيرة على السنة، وما يسببه هؤلاء من انطباع سيء للإسلام، وسوء الأدب الذي يتميز به معظم هؤلاء.

في التمهيد أشار إلى الدافع الذي دفعه إلى وضع الكتاب، والعلاقة التي تربطه بمعهد الفكر الإسلامي في أمريكا، ورسالة هذا المعهد التي تتمثل في: ربط ما انقطع من الفكر الإسلامي بعد تنقية منابعه وضبط مساره، والاستفادة بما هو نافع من المعرفة الإنسانية. فجاء الكتاب تلبية لإيعاز المعهد له بوضع كتاب ينصف السنة ويذود عنها، ويزيل ما علق عليها من مفاهيم معوجة، التي نسجها أصحاب العقول الكليلة حولها. وأنهاه بالقول: (... رأيت أن أتحمل وحدي مسئولية الأحكام التي قررتها، وأن أواجه ما يثور من اعتراضات..!) ص٦.

وأما المقدمة فقد بدأها بذكر الميول التي تربطه بشباب الصحوة الذي ينتظر منهم مزيدا من الجهد والعمل، فعلى الرغم من انتصارهم على الاتحاد السوفييتي

في أفغانستان، وقبله الاستعمار الفرنسي في الجزائر إلا (أن المعركة لا يؤذن ليلها بصبح، والمعاناة مستمرة) ص ٧، فجراح فلسطين ما زال ينزف والصحوة (تحاك لها المؤامرات العالمية، ويتعرض أبطالها إلى ظلم بعد ظلم وألم بعد ألم).

٢- إن الهدف الأسمى لطلائع الإسلام الذي يريده، هو (إعلاء الوحي الإلهي، وإنصاف الفطرة الإنسانية، وترشيد الحضارة؛ كي ترتبط بربها وتسير على هداه ... فالتراث الذي قاد العالم دهرا لا بد (أن ينهض من كبوته، ويستأنف رسالته، ويغسل الأرض من أدرانها).

٣- وأن سبب وقوع العالم الإسلامي في براثن الاستعمار هو فساد الأنظمة الحاكمة، وغياب الحرية والعدالة؛ ولذا كان يولي اهتماما كبيرا بجو الصحوة السائدة، ويرى التعامل معها برفق وأناة؛ لتوجيهها الاتجاه الصحيح. فكثير من الأنظمة الاستبدادية تريد أن تشغل شباب الصحوة بالمسائل الفقهية الخلافية -التي لا تهز عروشهم- بدلا من إعطاء الأولوية لقضايا العدل ورسالة الدولة في خدمة الناس. وهذا ما نتج عنه شيوع الأقوال الضعيفة وترجيح الأقوال المرجوحة، مما أدى إلى انتشار التزمت والجمود! ونتوء شباب ساذج، يرفض أقوال الأئمة ويدعي أنهم رجال والأئمة رجال. وقد ظهر هؤلاء الفتيان بعد اضمحلال دور الأزهر الذي يمكن لعلمائه القدامى تصدي على أعشار المتعلمين هؤلاء.

واختتم المقدمة بالقول: إنه (مع القافلة الكبرى للإسلام التي يحدوها الخلفاء الراشدون، والأئمة المتبوعون، والعلماء الموثقون خلفا بعد سلف، ولاحقا يدعون لسابق).

وقد أُقتصر حاليا على تلخيص الموضوع الأول الذي هو رأس الكتاب، وهو (نماذج للرأي ... والرواية) أورد الشيخ تحت هذا العنوان عدة نقاط مهمة، وهي كالتالي: صحة الحديث وشروطه - هل يعذب الميت ببكاء أهله عليه؟ - دائرة القصاص – تحية المسجد - حديث دنى الجبار فتدلى – تحقيق لعائشة – فتوى رعناء ... – موسى وملك الموت - متهم بريء - هل نعي الموتى حرام؟ - فضل الشام ...! – نفقة المطلقة ثلاثة - إكراه الفتاة على الزواج ممن تكرهه.

يقع الموضوع في ثلاثين صفحة بدءًا من صفحة ثلاث عشرة إلى صفحة ثلاث وثلاثين. بدأه بالقول إن المسلمين أولوا عناية فائقة في توثيق الأخبار، خصوصا فيما يتعلق بسيرة نبيهم وما ينسب إليه من قول أو عمل؛ لأن نيل رضا الله ومحبته يتحقق باتباع نبيه عليه الصلاة والسلام، ويعد الكذب على رسول الله ليس كالكذب على أحد من الناس، فهو طريق للخلود في النار، كما أنه تزوير على الدين؛ لذا وضع علماء السنة شروطا خمسة صارمة لقبول الأحاديث النبوية، ثلاثة منها في السند، واثنان في المتن، فلا بد في السند من راوٍ واعٍ

ضبطٍ، متين الخلق في جميع السند، وأما المتن فيجب ألا يكونَ شاذًا، أو به علة قادحة. وقد هيأ الله للسنة علماء بلغوا الشأن في هذا الصدد، فكانت غربلتهم للسنة محل ثناء وتقدير. ولم يسجل في تاريخ البشرية جهد مثله، في تحري الثقة عن تدوين الأخبار. كما انبرى الفقهاء في ملاحظة المتون في استبعاد الشاذ والمعلول. ذلك؛ لأن سلامة المتن يتطلب علما بالقرآن.

والسنة منه المتواتر والصحيح المشهور، ومنه الصحيح سندا والضعيف متنا. والذي يكشف ذلك هم الفقهاء. وقد ابتليت الأمة في عصرنا بفتيان سوء، يتطاولون على الفقهاء باسم الدفاع عن السنة مع أن الفقهاء ما حادوا عنها. وكل ذنبهم أنهم اكتشفوا عللا في بعض المرويات فردوها. وهذا نهج الصحابة. وقد يرد الحديث عند الصحابة والفقهاء للأسباب الآتية:

١- مخالته للقرآن كما فعلت عائشة -رضي الله عنها- حينما رد حديث الذي يقول (...أن الميت يعذب ببكاء أهله...) لمخالفته لقوله تعالى: ((ولا تزر وازرة وزر أخرى)) الأنعام: ١٦٤.

٢- إذا كان حديث الأحاد صحيحا وفيه علة قادحة، أو شاذًا كحديث (لا يقتل مسلمٌ بكافر) فيرى الحنفية أن من قتل ذميا يقتص منه مع صحة سنده. لقوله تعالى: ((النفس بالنفس)) المائدة آية: ٦، فقول الأحناف أدنى للعدل، وموافق لمواثيق حقوق الإنسان، واحترام النفس البشرية.

أهل الحديث يجعلون دية المرأة النصف من دية الرجل، وقد رفض ذلك الفقهاء المحققون، فالدية واحدة للرجل والمرأة في القرآن. والمالكية والأحناف يكرهون تحية المسجد والإمام يخطب، مع ورود حديث يطلب ذلك. عَلل الشيخ سبب ذلك بكون الرسول ' يخطب الناس بالقرآن، والله يقول: ((وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون)) الأعراف: ٢٠٤.

الرواية المتواترة لدى جمهور العلماء وعامة المسلمين بأن الذي نزل بالوحي على قلب رسول الله ' هو جبريل، وهو ما أشار إليه القرآن في غير ما موضع، ومع ذلك هناك أحاديث مستغربة، نقلت عن طريق الأحاد أن الذي دنا فتدلى هو الله.!!! والرواية تخالف المتواتر، فلذلك ردته عائشة –رضي الله عنها- والفقهاء. وكذلك ردت عائشة –رضي الله عنها- الرواية التي تقول: ((ما أنتم بأسمع منهم)) لقوله تعالى: ((وما أنت بسمع من في القبور)) فاطر: ٢٢، وإن كانت الرواية قوية إلا أن عائشة –رضي الله عنها- ردته لمخالفته ظاهر النص القرآني، ومثله حديث موسى –عليه السلام- الذي يذكر بأن موسى –عليه السلام- لما جاءه ملك الموت لقبض روحه غضب ولطم ملك الموت ففقأ عينه ... الخ، الحديث صحيح السند، ويقول الشيخ الغزالي (الحديث صحيح السند ولكن متنه يثير الريبة أن موسى –عليه السلام- يكره

الموت ولا يحب لقاء الله...) الخ، ناقش متن الحديث بقوله: إن الصالحين يحبون لقاء الله، فكيف بواحد من أولي العزم؟! ثم تسآل: هل الملائكة تتعرض لعاهات كما يتعرض البشر؟ وسرد التبريرات التي أوردها العلماء لفعل موسى وردها بالقول: (هذا الدفاع كله خفيف الوزن، وهو دفاع تافه لا يساغ ...، والصحيح أن في متنه علة تنزل به عن مرتبة الصحة.

والعلة في المتن يبصرها المحققون لا أصحاب الفكر السطحي. ومنهج الأئمة يرفضون الأحاديث الذي صح سندها واعتل متنها، ورفض الأحاديث أو قبولها خلاف فكري لا عقائدي.

ومن ضمن الأحاديث المردودة في هذا الباب ما رواه أنس أن رجلا كان يُتهم بأم ولد، فأمر الرسول بقتله. ثم تبين أنه مجبوب. فمستحيل أن يحكم على رجل بقتل في تهمة لم تتحقق، ولم يواجه بها المتهم، هذا أمر يأباه الإسلام ... وفروعه، ومن الأحاديث المردودة تحريم نعي الموتى، إذ أن النعي المكروه ما كان استعراضا للمآثر والمفاخر. وما أكثر الأحاديث المنتشرة اليوم بين الشباب يستنتجون منها أحكاما سيئة، إن قبل سندها فإن متنها لا يصح قبوله. فيما يتعلق بالمرويات التي تتحدث عن فضل الشام والترغيب في سكناه، أو المرابطة فيه، يرى بأنه يكون ذلك عند ما يتعرض الإسلام للخطر من قبله، أو تحدث ثغرة في حدوده كما هو الحال الآن في فلسطين الذي هو جزء من الشام، وللمدافعين عن الإسلام في أي بقعة، لهم كل الحقوق التي لعرب فلسطين أو لأرض الشام.

ومن ضمن الأحاديث التي ردت بسبب علة متنها، حديث فاطمة بنت قيس التي طلقت ثلاثا ولم يجعل لها رسول الله سكنى ولا نفقة كما قالت، فرده عمر بقوله: لا نترك قول ربنا وسنة نبينا لقول امرأة لا ندري حفظت أو نسيت. لها السكنى والنفقة. ومن الغريب أن هناك من يترك الفقه والنقل معا في بعض الأحكام، كما ذهب الشافعية والحنابلة إلى جواز إجبار الوالد ابنته البالغة على الزواج بمن تكرهه، انسياقا مع تقاليد إهانة المرأة وتحقير شخصيتها. بينما الحديث صريح في ترك الخيار للبنت إذا أجبرت على الزواج بمن تكرهه في أمضاء العقد أو إبطاله، والأحناف أعطوا المرأة حق مباشرة عقدها إمضاء لظواهر القرآن.

يمكن إجمال ما تقدم على أنه لا يجوز أن يتصدر للإفتاء إلا من رسخت قدمه في القرآن، وعلا كعبه في السنة، وأن الحديث قد يكون صحيح السند عليل المتن، ولا يدرِك ذلك إلا جهابذة الفقهاء، وأن الصحابة والفقهاء المجتهدين كانوا يردون الحديث الصحيح سندا، إذا تعارض مع القرآن ولم يمكن جمعهما، الفتوى الشاذة الصادرة من أنصاف العلماء، كثيرا ما يكتفي هؤلاء بالحديث الواحد في الموضوع دون العودة إلى القرآن، أو الأحاديث الأخرى الواردة في الموضوع.

Said Omer, a native Arabic speaker from the Comoros, holds a Bachelor of Arts in *Da'wah* wa *Uṣūl Adīn* (the Islamic University of Madina) and a Master of Arts in Arabic (International Islamic University of Islamabad). Since 1998, he has been teaching Arabic, first at the Darul Arqam Institute, which eventually became the International Peace College South Africa (IPSA). He has taught Conversational Arabic, Arabic Literature, Arabic Grammar, and Rhetoric, as well as served as a correspondence officer with the Arab World.